

## قصة كفاح

شدتنى فى احدى الامسيات سهرة تلفزيونية بعنوان (بكرة أحلى) فى قناة النيل الازرق والتي اضفت ألقا جديدا على فضاء السودان الذى يتوهج بالابداع .. ويتلأأ بالنجوم التى تضى كل اركان العالم ان استطاعت ان تفلت من عباءة الظلام التى تلف سماء الاعلام .كما أمل ان ينظر اليها أولوا الأمر على أنها رسالة محبة و نقطة مضيئة فى سجل انجازاتهم و عند أضعف الأيمان صدقة جارية تصب فى ميزان حسناتهم خيرا و بركة من دعاء المغتربين و سؤل المهاجرين فى كل بقاع العالم.

أقول هذا و انا أتابع ايضا الفضائية السودانية والتي تذخر بالأمكنات البشرية البراقة و الكفاءات الاعلامية الخلاقة عن دراية ذاتية و تجربة شخصية عشتها فى بدء الاذاعة و افتتاح التلفزيون و لكنها اشراقات مثقلة بقيود الحاجة و مكبلة بشح الامكانيات المادية و التى لو احسن ترشيدها فى المال العام لقفزت الى الصدارة بعد مطار الخرطوم..عنق الزجاجة المليئة بالدم و كفى قولاً :

**كالذى ألقوه فى اليم مكتوفا و قيل له إياك.إياك أن تبتل بالماء**

عود على بدء..لقد تابعت بارتياح شديد سهرة (بكره أحلى ) ذات العنوان الجذاب المبتكر المتفائل المتناغم و المطل على البعد الثالث من واقعنا المتطلع الى الانفلات من عتمة الانغلاق الى رحابة الانفتاح.. لقد كان لهذا العنوان المشحون بالمعانى النبيلة و المتفرد فى طرح أهم القيم الاجتماعية وقع خاص و هو يحاول فى سيناريو تلفزيونى حى ان ينفض عنها غبار الزمان الساقط من سقف الانهيار ليرى الناس ملامح التحفة الاثرية التى تحكى عن(قصة كفاح )

أتذكر أننى قد شاهدت قبل سنوات سهرة مماثلة قدمها الصحفى الاستاذ الراحل حسن مختار طيب الله ثراه مع الكاتب البارع و العصامى اللامع و السياسى اللاذع الاستاذ الراحل المقيم محمد احمد السلمابى و قد كان يحكى قصة كفاحه و البحث عن الذات و كانت تجربة فريدة و جديدة ان يتحدث رجل فى قامته شموخه و شدة وضوحه عن سيرته الذاتية من (جرسون) فى مقهى ناصيه و كيف تسلق سلم المجد و صعد الى اعلى الجبل يحمل صخرة ( سيزيف) حتى وصل قمة الهرم الاجتماعى و خلف ذكرى عطرة تقول : (الذكرى للانسان عمر ثان)...خاصة لو كانت فى صدقة جارية او علم ينتفع به او ولد صالح يدعو له...و قد اصبحت(مكتبة السلمابى) من مفاخر التراث السودانى.. فالكبار هم الذين يصنعون التاريخ و هو صاحب المقولة الشهيرة فى عهد الديمقراخية الاولى عندما قال فى مقابلة صحفية ( ان مشكلت السودان انه تحكمه عشرة جرادل جير) فى اشارة ساخرة من الشعارات المعادية من المعارضة والتي تملأ جدران البيوت عند كل صباح و تشوه- فى نظره- جمال العاصمة ولكنها ترسم سياسة الحكومات و كانت هذه نظرية السلمابى و هو المحسوب على الطبقة الكادحة

فى مطلع حياته و يؤكد فى سيرته حقيقة ان ( ليس الرجل من يقول كان أبى و لكن الرجل من يقول :أنا) ...ذلكم كان الرجل العصامى الموسوعى المتحدث المتأنق المعتز بقصة كفاحه

أقول هذا و اذكر فى ذات السياق مقولة الزعيم السوفيتى السابق ( نيكيتا خروتشوف ) و قد بدأ من عامل منجم فى روسيا الى أعلى سدة الحكم فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق قال - و هو فى خريقه الى الامم المتحدة فى عهد الرئيس الامريكى السابق جون كنيدي ليلقى كلمته امام الجمعية العامة حول أزمة الصواريخ الروسية فى كوبا - قال : ( اننى أخلع قبعتى و أنحنى اجلالا للرجال الذين يصنعون التاريخ و أخلع حذائى و انهال ضربا على رؤوس الرجال الذين تصنعهم الاحداث ) و مازلنا نتساءل حتى اليوم من الذى صنع التاريخ و من الذى صنعته الاحداث.. و للتاريخ كلمته

عود على بدء... تابعت فى السهرة قصة كفاح ( الاستاذ تاور ) و الذى جاء من جبال النوبة الى الخرخوم ليوصل دراسته فى التاسعة من عمره لان أسرته لم تكن تمتلك مبلغ ( اربعة جنيهات ) هى مصاريف الدراسة و شاهدت كيف كتب فى ملحمة نضالية رائعة حروف مشواره من عامل فى قسم صناعة الخزف فى المعهد الفنى سابقا ثم تدرج فى العمل مع الطلاب و الاساتذة داخل أروقة المعهد و الدراسة الاضافية بعد ساعات العمل منقطعا عن كل ملذات الحياة حتى تدرج فى سلم الترقى ليصبح الرئيس و الاستاذ الاول فى الجامعة ليقول مع المتنبي :

**على قدر أهل العزم تأتي العزائم و تأتي على قدر الكرام المكارم**

و كان مشهدا رائعا و قد تزوج و انجب أسرة التفت حوله تستمع اليه فى فخر و هو يحكى فى تواضع جم و كلمات واثقة و نظرات ثابتة كيف تحدى الفاقة و الفقر و العجز شان الرجال الذين يصنعون انفسهم بدمائهم و اعصابهم لا بانتمائهم و انسابهم.

و فى الحلقة الثانية شاهدت قصة كفاح ( المعلم كمال ) الذى هاجر من مدينة الحديد و النار المدينة العمالية ( عطبرة ) و ربما متسطحا على ظهر احدى عربات السكة الحديد فى القطار الميمم ووجه شطر الخرخوم بحثا عن الكنز المفقود لا يحمل معه غير عزيمة فطرية و ارادة حديدية فى اكتشاف المجهول و سرد قصته و قرأ سيرته صفحات مشرقة بنور الكفاح فى رحلة خويلة اكتشف فيها موهبته و التى ربما كانت احد العوامل الخفيه فى هذه الخطوة الذكية التى قذفت به من لجة الموج المتلاخم الى شاخى الامان فجمع بين فن السمكرة و فن الايقاع ..ايقاع المطرقة و السندان و ابداع العود و الكمان و بين شقاء الاولى و صفاء الثانية اخطط له ( سكة سفر ) الى محطة البناء و التعمير تحت وهج الهجير و دخل من البوابة الثانية الى عالم الشهرة عبر التلفاز و الاثير بلقب ( كمال بنزق ) .

و كان يتحدث بتلقائية أشبه بجلسات الترويح النفسى التى يفرغ فيها الانسان الشحنة العاخرية المكبوتة و يتنفس الصعداء و أخرى كالحظات استرخاء يسترجع فيها شريط

الذكريات شديدة الايحاء او يستمع الى قطعة موسيقى او سمفونية رائعة يقوم بعزفها افراد اسرته و الذين التفوا حوله كفرقة اوركسترا يجيدون العزف على وتر الاعتزاز بكلماته الجياشة و يتبادلون عبارات التكريم و يتبارون فى تقديم فروض الولاء و الطاعة وكأنهم يرددون ( المال و البنون زينة الحياة الدنيا).

و يحق له ان يتساءل: كم من ( العظماء) من الابناء الذين شغلوا الدنيا وخطفوا الاضواء يذكرهم بفخر سيرة آبائهم البسطاء الذين عاشوا فقراء و رحلوا غرباء و خوبى للغرباء؟ و كم من (العظماء) من الاباء الذين صنعوا امجاد أمة و تاريخ شعب يتحسرون على ابنائهم الذين ملأوا الدنيا ضوضاء بلا بذل و لا عطاء و عاشوا كالاموات الاحياء؟

عود على بدء.. لقد حملت الرسالة فى مضمون السهرة قيمة اجتماعية على قدر كبير من الاهمية فى مجال الاعلام التربوى و نقطة مضيئة فى اسلوب التنشئة الاجتماعية للاجيال المعاصرة التى تتعطش الى ضرورة ترسيخ مفهوم العمل عبادة حين يستمع الاب فى لحظة صفاء نفسى و لقاء أسرى على الهواء مباشرة شهادة ابنائه على قيمة عطائه و جودة ادائه.. و كما قال الفنان عثمان اليمنى فى حفل تكريم الفنان الكبير الاستاذ عثمان حسين ( لقد تعودنا ان نقول للمحتفى به.. يوم شكرك ما يجى.. و لكننا الليلة نريد عثمان يسمع شكره بأضانه دى ) ... و شد على أذنه اليمنى.

و استمرت السهرة و الابناء يستمعون الى سيرة ابيهم و تاريخ حياتهم من كاتب السيرة و صانع المسيرة و كانهم يستصحبون فى رحلتهم الحديث الشريف (لأن ياخذ أحدكم حبله و يحتطب خير له من ان يسأل الناس أعطوه او منعوه) صدق رسول الله صلى الله عليه و سلم. و لا اعلم ماذا كان سيقول هؤلاء لو جاءوا الى الخرجوم يسألون الناس لا ان ياكلوا من عمل يدهم و قد أجزل الله لهم فى العطاء حين وهبهم قوة الارادة و حب العمل ليعمروا الارض التى استخلفهم فيها يشد من عضدهم قول الشاعر ابي القاسم الشابى:

أبارك فى الناس أهل الطموح      ومن يستلذ ركوب الخطر  
و من لا يعانق شوق الحياة      تبخر فى جوها و اندثر  
و من يتهيب صعود الجبال      يعيش أبد الدهر بين الحفر

و الحق أقول لكم: اللهم اجعل دائما (بكره أحلى) و لنا عودة .. باذن الله

دكتور الزين عباس عماره..... أبوظبى